المثقف العراقي والمثقف العربي
العلاقة الملتبسة بين الثقافة والسياسة

شاكر الانباري

علاقة المثقف مع الحاكم، علاقة ملتبسة على مر العصور العربية الاسلامية، فيها منافع وولاءات وميول، قبلية وطائفية، فكرية وثقافية. المأساة ضمن تلك الفصول تغلب احياناً على ما عداها. المغريات ضخمة للمثقف ورجل الدين وصحافي هذا الزمان، مثلما ان المغامرة قد تقود الى الموت. التمثلات لا تحصى، اذ كشفت قضية الروائي المصري جمال الغيطاني، حول اتهامه بكتابة رواية (زبيبة والملك) التي نسبت الى الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين، الازمة الكامنة بين المثقفين العراقيين وعدد من المثقفين العرب، ممن ربطتهم علاقات معينة مع النظام، او دافعوا عن توجهاته السياسية وحروبه.

الازمة تلك لا علاقة لها بالابداع والرؤية الثقافية لتركتها الى الكتابة، الاختلاف والتقنع وتبادل الاتهامات مردها الى خلفيات سياسية او على وجه الدقة الموقف من الانظمة العربية الحاكمة، وعلاقة المثقف عموماً بتلك الانظمة. سقط نظام صدام حسين، وبدت الاوراق السرية لثلاثين سنة من حكم البعث في العراق تظهر الى العلن. وقيل ان المؤتمر الوطني العراقي، وضع يده على ارشيف وزارة الاعلام العراقية ويحتوي على كل الصحف والمجلات التي كان النظام يمدها بالاموال كي تروج لوجهة نظره، وتدافع عن سياسته القائمة على البطش والارهاب وقمع حرية الراي وتهميش الثقافة الجادة ودفع المثقفين العراقيين والمفكرين الاحرار الى الهروب نحو المنفى، وتبرير الحروب الخاسرة بذريعة النزعة عنصرية وفجاجة. وفضلاً عن المطبوعات الثانية للصحف والمجلات، تكشف ان عدداً لا يستهان به من المثقفين العرب والصحفيين، البعض ذو مكانة مرموقة في عالم الثقافة، يقبضون مرتبات شهرية من سفارات العراق، عدا المنح المتفاوتة التي اكرم من ورقة، في حين كان المثقفون العراقيون يعيشون مهجرين خارج بلدهم، يجترون الام المنفى البعيد عن قواميس اللغة العربية التي اسستها مدرستا الكوفة والبصرة، لكن، نظرت اليهم الثقافة الرسمية العربية، بمن فيها عرفوها ابناء سيبويه والخليل الفراهيدي والجاحظ وابو العلاء المعري، نظرة ريبة وشك واتهام. وقضية جمال الغيطاني لم تكن الاولى في ملف الثقافة العراقية الوطنية، ومعاركها السياسية ضد النظام العراقي. سبق ذلك الكثير. تركزت كلها على رفض المثقفين العراقيين لاي مثقف عربي يتعامل مع نظام صدام حسين، لا يهم ان كان مبدعاً كبيراً او صغيراً، بل ان الغضب احلى واضخم على المبدعين العرب الكبار. فالاعظم بينهم هو الذي احتل مساحة الحديث او النقد والادانة.

واحد من الشعراء العرب الذين احترمه الشعراء والمثقفون العراقيون دائماً، السوري شوقي بغدادي، دعي قبل سنتين الى الملتقى الثقافي العراقي في دمشق الى امسية شعرية تكلم عن وقوفه الى جانب معاناة المثقفين العراقيين مع النظام الدكتاتوري ورأسه صدام حسين، شيء جميل ومؤثر. شاعر يبكي على عراق السياب وحسين مردان وزكية جورج وكامل الجادرجي والحلاج، وعيون المها بين الرصافة والجسر. فوجئ المثقفون لاحقاً بسفر شوقي بغدادي الى آخر مؤتمر للمربد، ملبياً دعوة وزارة الثقافة العراقية، متمثلة برموزها العراقيين حميد سعيد وسامي مهدي ورعد بندر، شاعر ام المعارك، ومتهم الروائي الكبير جمال الغيطاني بكتابة زبيبة والملك، وعبد الرزاق عبد الواحد. وكان سعدي يوسف والبياتي وعبد الكريم كاصد وفاضل العزاوي وسركون بولص، ومن بعدهم هاشم شفيق وشاكر لعيبي وكاظم جهاد وحميد العقابي ومنعم الفقير ومهدي محمد علي ومظفر النواب، كلهم قطاع طرق في شوارع لندن. خصصت له سيارة آخر موديل من قبل وزارة الثقافة العراقية هو وشقيقه الغد شاعر القومية العربية العراقي يوسف الخطيب. القصائد التي القيت كانت من آخر طراز لنصرة الشعب العراقي الذي رقد تحت عمامات المعارك الكيمياوية في حلبجة والنفط خانة والاهوار الناصرية، ميدانيكيا، ومفرداتها من عظام الشعب العراقي الذي رقد بسلام قبل سنوات طوال في مقابر جماعية توحدت رؤية الشاعر العروبي مع عراق حلبجة وجلبت له القصيدة العربية المناضلة نكبة الموت. صحفيون وشاعرات جميلات وشبان روائيون ظلوا حتى اللحظة الاخيرة يتبجحون بانتصار قائم على خمسة ملايين عراقي في الشتات وعشرين مليون كانوا كما اخبر الرواة يضعون ايديهم على قلوبهم خوفاً من موت جورج دبليو بوش قبل ان يطيح بصدام حسين. حدثت طرائف وفضائح في هذا المجال بحيث لا يزال ابطالها يعيشون بيننا في الساحتين العربية والعراقية. ولعل مشاركة الشاعر الكبير محمود درويش في مربد العام 1986، ظلت خير مثال على ذلك. مئات بل الاف المثقفين العراقيين سرحوا في المنافي وكانوا يدعون الى اسقاط النظام واقامة حكم ديمقراطي. الحرب مع ايران في اوجها وطاحونة الموت قائمة لا على الحدود الايرانية العراقية فقط، انما في الداخل العراقي. حزب الدعوة اقتلع من جذوره، الشيوعيون صاروا وباء في نوف اجهزة النظام، الاكراد جربت فيهم آخر منجزات التصنيع العسكري، بقيادة حسين كامل الذي جز رأسه في عام ستة وتسعين من قبل علي حسن المجيد، الملقب بعلي صانع المعجزات. صدام كوري العرب، عريف القتال الجماعي، المحتفى به في بيروت ودمشق باعتباره رسول بطل العروبة وحارس البوابة الشرقية، حسب قول الروائي المصري جمال الغيطاني. جاءت مشاركة محمود درويش صفعة للمثقفين العراقيين الذين دفع ووقف درويش معهم، ومع نضالاتهم في اقامة حكم وطني وثقافة وطنية لا تمجد الاحادي، كل ذلك في اوقات ماضية من ازقة بيروت وتل الزعتر ومخيمات الفلسطينيين. العراقيون، مثقفون وفقراء، ما كانوا ينظرون لدرويش موهبة استثنائية من بين الشعراء العرب، فهو ليس شاعراً فقط بل مدافع عن حقوق شعبه الفلسطيني. مجدد القصيدة العربية ساحر الكلمات مغني احمد العربي في بغداد امسية مع شاعر العراق سعدي يوسف. كيف اذن؟ شن المثقفون العراقيون هجوماً واسعاً على درويش، سواء في مجلة الثقافة الجديدة التي يديرها الحزب الشيوعي العراقي، او في الصحف العربية منطلقين من ان درويش رمز مقاومة الصهيونية والارهاب الاسرائيلي والشاعر الذي تتجسد فيه قيم النضال الفلسطينية التي دعمها ولا يزال معظم مثقفي العراق. كيف يتغزل بعقر بغداد المحتل على البصرة؟ صدام حسين. (المفارقة التي اشار اليها الشاعر السوري الكردي سليم بركات في احد المرابد. الشاعر العراقي خالد المعالي المقيم في المانيا، الذي اغتصب في اروقة الامن حسب المقابلة التي اجرتها معه جريدة البوليتيكن الدنماركية، وانس دار الجمل، وجه له على عنوانه في قبرص، وكان سليم وقتها سكرتير تحرير مجلة الكرمل، طرداً بريدياً مليئاً بالعظام. دلالة واضحة لنيمة ومضحكة. حكم قاس يطلقه المثقفون العراقيون، بحق او بدونه، على كل من يمد يده الى النظام. فالعلاقة مع النظام العراقي معضلة. قضية دالة، لم يساوم عليها اي مثقف، سواء من اليمين او اليسار، من الاكراد والعرب والتركمان او غيرهم، ممن يعيشون خارج العراق، بل وفي داخل العراق. روى محمد مظلوم الشاعر العراقي الذي غادر بغداد في العام الخامس والتسعين من القرن الماضي انهم كمثقفين وشعراء ظلوا اذلوا المثقفين العرب في حلوانهم، بسبب مجيئهم الى المربد او المهرجانات.

اذلوهم بصمت طبعاً، فما يكرهونه المخابرات مزروعة في كل فندق وقطار وحافلة.

كيف تأتون الى بغداد وخيرة مثقفيها مطاردون؟

الجواهري، سعدي يوسف، كريم كاصد، فاضل العزاوي، فوزي كريم، علي الشوك، زهير حسين، مصطفى جمال الدين، هادي العلوي، جواد الاسدي وناجي عبد الامير وباسم قيار وسحر طه وفريدة مغنية المقام، التي تستعيد امجاد يوسف عمر ومحمد القبانجي، ثم من الفنانين جبر علوان، وفيصل لعيبي، ومن سورياليي آخر العرب الثلاثية فاضل العزاوي، محمد سعيد الصكار ابو الحروفية العربية، وغيرهم وغيرهم. كيف؟ ظل معيار علاقة المثقف العراقي مع زميله العربي، شدة عدائه للنظام البعثي في العراق. قضية الابداع كانت تأتي في المقام الثاني. لايهم ان كان محمد الجابري عبقري الفكر العربي، وجمال الغيطاني قد الرواية العربية، وجمال باروت مفكر القومية العربية، وميشيل كيلو داعية للمجتمع المدني في سورية، لكنه اشاد ويشيد بخصال القائد في بغداد، الا انه اسقط رئيسين من رؤساء الولايات المتحدة ورئيسي وزراء في بريطانيا العظمى. قوة الساحة العراقية لم تترك اي هامش امام المثقفين فكل من بقي تحت جناح السلطة اجبر او اغري على التعاون معها او صمت على الاقل، كل من لم يقبل ذلك سافر خارج العراق، بطرق سوريالية، حفاظاً على حياته وابداعه. كثير من المثقفين العرب كانوا يقيمون النظام العراقي ليس على اساس عقلاني، فثمة تحالفات تجعل منه حارساً للبوابة الشرقية، اي ضد ايران (الفارسية) الطامعة في ارض العروبة، وتجعل منه بطلاً قومياً سيقيم دولة عظيمة تهدد اسرائيل. الا يمتلك برنامجاً لصنع قنبلة نووية؟ الا يصنع الانثراكس والسيانيد والتحاليل الكيمياوية والقنابل البايولوجية؟ وصفوه في مصر وسورية والمغرب بالمستبد العادل، الذي جلب البحبوحة المعيشية للشعب، وجعل من العراق مصدر رزق للملايين العمال العرب، المصريين منهم خاصة. اضافة الى ان السلطات العراقية كانت في الحقيقة تغدق الاموال والهبات على اي مثقف عربي يزور بغداد حتى لو كان يختلف قليلاً في الرأي معها. في هذا المقام يذكر عبد الرحمن منيف، غالب هلسا، جمال الغيطاني، صديق عدنان خير الله طلفاح وزير الدفاع العراقي ونائب القائد العام للقوات المسلحة العراقية، محمد صبحي والفنانة رغدة، سعاد الصباح التي غزلت من شعر صدام حسين كنزة للنوم قبل ان يرسل الى الكويت صفوة الحرس الجمهوري لتوسيع مملكة العراق. روى عراقي زار المغرب في عام خمسة وتسعين، من القرن العشرين المنقرض، وهو لو ظن عبد الله زنكنة، كردي الاصل، ساكنة بغداد، حي تعامل، كيف انه ركب مع سائق تاكسي، عرف في منتصف الطريق انه عراقي، فراح يشيد بمناقب جلاد العراق صدام حسين، [illegible] عربية واحدة ذات رسالة خالدة، هو الكردي سليل مم وزين وكاوه الحداد؟

ترك ذلك الكردي العراقي المسكين، في قارعة الطريق العربي بلا زاد اسلامي او عروبي. لم يكرر ذلك العراقي زيارته للمغرب ابداً.

وقف قسم من المثقفين والصحافيين العرب مع العراق بصلافة في حربه مع ايران، وحادثة توزيع النظام السيارات خاصة لبعض الصحافيين معروفة، خصص كذلك رواتب لقسم منهم لم تتوقف حتى سقوطه. النظام لا يطلب من المثقف العربي اكثر من بيان تأييد للقائد او اشادة بحروبه واضفاء مشروعية عليها، او على الاقل السكوت عن مظالمه. فلا يحكم، لم يسقط فيه الاطلاب المجالات. في كتاب مهم اسمه، حوارات مع المثقفين العرب حول القضية الكردية، للكاتب الصحفي سالار اوسي، ذكر فيه ان بعض المثقفين العرب الذين اتصل بهم للادلاء بدلوهم في موضوع رفض المشاركة، محمد دكروب على سبيل التخصيص. فسر اوسي الرفض بخوف المثقفين العرب من الجهر برأيهم حول قضية شائكة كالقضية الكردية. الم يهتم البارزانيون في السبعينيات باقامة صلات مع اسرائيل؟ الم ينتفض الاكراد ضد نظام صدام حسين ابان الحرب مع امريكا؟ ماهي الفيدرالية؟ انها تقسيم العراق!!! الوطن العربي امة مصمتة لا تضم حسب آرائهم القبلية، لا الامازيغ ولا الاكراد ولا الاقباط ولا الشركس ولا الاحمائيين في السودان ولا السواحليين ولا الطوارق ولا ولا ولا؟ كلا فنحن امة مصمتة، انسيا ميشيل عفلق، ونظر لها شعراً سليمان العيسى، تمرد علينا ادونيس ومحمد شكري الامازيغي [illegible] والمثقفون القوميون، كعبد الرزاق عيد وجمال باروت ويوسف القعيد والغيطاني وميشيل كيلو وعبد الباري عطوان ومئات لا تحضر اسماؤهم، يعتبرون ان التأييد لحقوق الشعب الكردي في الفيدرالية، خاصة، تهديداً لوحدة العراق، وتقسيماً له. ظلت المعارك مشتعلة على صفحات اخبار الادب، بعد ان قام مئات المثقفين العراقيين والعرب في زيارة كردستان العراق للاحتفاء بمئوية الجواهري، ونصب تمثالين له في مدينة السليمانية واربيل. كيف يحتفل المثقفون العراقيون والعرب بالجواهري، شاعر العرب الاكبر في مدن كردية؟ لم لا يتم الاحتفال في بغداد؟

وهذا سؤال يوسف القعيد، القاص والروائي المصري الذي يعرف اكثر من غيره ان قائمة الاستاذ عدي صدام حسين، نقيب الصحافيين ورئيس اللجنة الاولمبية وقائد منظمة فدائيي صدام حسين، ورائد الرفق بالحيوان في العراق، كانت تضم اكثر من ثلاثمائة مثقف، وهناك من اصدقاء القعيد ذاته رقابهم لن تصمد امام سيفه، والسنتهم ارق من ان تقطع. كيف يحتفلون بالجواهري في عاصمة الرشيد الان؟ الشوفينية العربية في بعدها القومي العفلقي وحدها تعرف ذلك. الاحتفاء بالجواهري في كردستان العراق التي عنى مكرها، عندتمهيداً للانفصال، او على الاقل تأييداً للروح الانفصالية الكردية. اسئلة توجه لعبد الرزاق عيد ويوسف القعيد وميشيل كيلو وناديا خوست وخير الدين حسيب ومعن بشور وعلي عقلة عرسان وسامي مهدي، وسماح ادريس وجمال الغيطاني. ان الحصار الذي عانى منه الشعب العراقي، وليس النظام، لامس ضمير كبار الكتاب والمثقفين والصحفيين، ودعا الجميع الى رفع ذلك الحصار، قامت حملات تضامن مع الشعب العراقي، وارتفعت اصوات نقدية، ادانت عسف النظام مثلما ادانت الحصار، الا ان قسماً من المثقفين العرب جير حملات التضامن تلك لصالح رأس النظام، وان بكلمات مواربة. رأينا اوسع مشاركة عربية في آخر مؤتمر لاتحاد الكتاب العرب عقد في بغداد، وان ظلت الاسماء المشاركة رسمية عموماً، لكن ما فاجأنا المثقفين العراقيين بيانات التضامن مع النظام، بعد (وقوفه في وجه الامبريالية الامريكية والصهيونية العالمية وتأسيس جيش القدس الذي سيعبر، حسب الذهنية العربية الخرافية، صحراء الرطبة، مجتازاً الاردن ليدخل ارض فلسطين ثم يوم تل ابيب بلمح البصر. القضية في الحقيقة لا تعدو ان تكون ضحكاً على ذقن الوطن العربي من الخليج الى المحيط. لا احد يسمح بتجاوز حدود الاردن، ولا احد يسمح اطلاقاً بالدخول الى ارض فلسطين، فالثورة وحماتها يدججون بالاسلحة النووية واقفون على الابواب. والستة ملايين فرد ليسوا سوى اكذوبة لتمتين كرسي الحاكم. ولا يمكن لصدام حسين او حزب البعث ان يحرر فلسطين دون اسقاط ذاته الايديولوجية التضحية، ودون جعل الحاكم لشعبه القبور في صحراء جماعية غير مسبوقة. خلط الاوراق واضح، ولم يميزه بدقة سوى العراقيين. العراقيون يعرفون ويمتلكون الخبرة بنظامهم، وكيف يجير اهواء العرب المساكين الى صالحه. الاصوات القومية العالية، التي بدأت تصرخ بتقسيم العراق إذا ما سقط النظام، او ان الدماء ستسيل في الشوارع دفاعاً عن العراق، وان اسلحة الدمار الشامل ستحيل المنطقة الى جحيم، لم تكن، وكما اتضح لاحقاً، الا رغبة غير مباشرة او خبيئة للتعبير عن رعب ان النظام فاشي عنصري دموي لا يمت الى العروبة بصلة مثل نظام صدام حسين، القوميون لم يتصوروا عراقاً بدون صواريخ العباس، والانثراكس والمدفع العملاق، وبرنامج الاسلحة النووية وتجييش ستة ملايين لتحرير القدس، لم يتصوروا عراقاً دون حزب بعث، حول البلد الى سجن كبير ومقبرة جماعية للشعب. عراق مثل ذاك لن يوزع شيكات ولا دولارات ولا ناقلات نفط لفنانات مثل رغدة.

مرة، وفي الموضوع ذاته، راح واحد من العراقيين يناقش مثقفاً سورياً يكتب الرواية، حول شخصية صدام حسين وقوة العراق وقتل الناس وتشريد المثقفين، قال ذلك المثقف، وصلعته تتنور بعرق التاريخ العربي المجيد، الذي سيأتي عبر الحرب، ان صدام حسين يمتلك مشروعاً قومياً حضارياً، ومن يمتلك مشروعاً مثل ذلك لا يهم ان يضحي بمليون مواطن، ثمناً لذلك المشروع. عمر شبانة الكاتب الفلسطيني، المقيم في عمان، وفي ذلك المساء المخمور على حافات مخيم اليرموك، استشاط غضباً، ونحى على بوابة الائمة، ثم ترك الموضوع الى ضمير التاريخ، تاريخ العرب المضمخ بالدماء، منذ ايام محمد علي باشا بينما ظل المثقف العراقي المعارض فاغراً فمه دهشة، في ضوضاء مخيم بائس، وسط دمشق. وقد انتصب امامه هتلر صغير، وعدد من اقران الغاز، والمقابر الجماعية، ومدينة حلبجة الكردية، وسلام عادل وصفاء الحافظ وصباح الدرة ومئات من اصدقائه الاكراد والعرب والشيعة والمسيحيين والقوميين والصابئة والدراويش، عبد القادر الجيلي، ومن هب ودب في سهوب ما بين النهرين، وفي ما بين البحرين، والتي للتساؤل هو:

لم يعلق المثقفون العرب والمفكرون احلامهم على صدام حسين كلما دخل في مواجهة خاسرة مع امريكا والغرب؟ ولم يقفون دائماً معه حتى لو حارب ضد الجميع؟

ثمة مثقفون كانوا يكيلون النقد الخفيف او الحاداً احياناً للنظام العراقي، لكن ما ان بدأت وتيرة الاستعدادات الامريكية لاسقاط النظام حتى التفوا ابتلقيهم كله خلف قياداته، واعلنوا نصرته على الامريكان نصرة للعراق، وتلك اكذوبة لم يتمسك بدحضها، حتى النهاية، سوى العراقيين، ونفر قليل من المثقفين العرب المتماسكي الروح والضمير والثقافة.

في مقهى الروضة بدمشق، صار المثقفون العراقيون يتفادون الجلوس. انقلب اقرب الاصدقاء الى منافحين عن الدكتاتور وزبانيته، صارت المعارضة تهمة سافرة. حدثني واحد من العراقيين، من رواد المقهى، قال انه كاد ان يهجر المقهى تلك لان احدهم راوده ارشفة شخصاً ما سيقوم بما يتيا له باعتباره غير مناصر لنظام صدام حسين. سرت نهايتها حمى غير مجربة لمناصرة الدكتاتور وابدى الشاعر محمد عضيمة دهشة عميقة حين شهد مظاهرة وسط دمشق تهتف باسم صدام حسين، في ساحة النجمة وسط دمشق ويهتفون باسم صدام حسين الثالث علامة من علامات الزمن العربي الرديء!!!

نعم هو زمن العجائب. قال عضيمة، في دمشق يا رجل!

كان تاريخاً يضج بمعرفة المشاعر العربية المضطرة الى الاف الانتحار.

لا يمكن القول ان المثقفين العراقيين كانوا على صواب دائماً، في علاقاتهم مع المثقفين العرب بمختلف ملاويتهم، كلا، فهناك عدد منهم تطرفوا بعراقيتهم اكثر مما ينبغي، في مقال للشاعر العراقي عواد ناصر كتبه في الشرق الاوسط، دعا فيه الى تسمية الجنود البريطانيين والامريكيين الذين قاتلوا في حرب العراق بالشهداء، فكرة تستفز، دون شك، الكثير من المثقفين العرب، وتستفز المسلمين كذلك، وفيها تطرف غير مبرر في العراقية المتعصبة، رغم ان هذا المصطلح يتطلب اعادة النظر، فالجلاد والضحية صارا يوصمان بذلك مع افتقاد المعايير، رجل امن يمكن ان يصبح شهيداً بتوقيه من رئيس الجلادين، وارهابي يقتل الابرياء يحصل على لقب سامية فرانية صرت في غير محلها.

الشاعر جمال جمعة، المقيم في الدنمارك، وجه رسالة غاضبة الى الشاعر عباس بيضون، في جريدة السفير، لان الاخير دعا في واحدة من مقالاته الى التسامح، ونسيان الماضي، الاليم في الوضع العراقي، والبدء بتأسيس ثقافة وطنية حرة. طالب جمعة جميع المثقفين العرب بالكف عن الحديث عن وضع العراق، والعراقيين، بل وهدد الجميع بالويل والثبور، ان ابدوا اي راي حول وضع العراق، وهذه نظرة، اقل ما يقال عنها انها تعيد خطاب البعث العراقي السابق وفاشيته في التعامل مع الراي المخالف. فالعراق يبقى مركباً في محيط عربي، لغة وثقافة وانتماء وروحاً. لا يختلف في هذا عرب واكراد وتركمان وصابئة وكلدان واشوريون ومسلمون، ذلك دون شك. حالات لا يمكن فصلها عن القسوة التي عاشها المثقف العراقي المنفي، الذي حرم من رؤية اهله ووطنه عشرات السنين، من قبل نظام بربري لا يزال قسم من المثقفين العرب يمتدح افضاله.

تطرف المثقفين العراقيين في عراقيتهم مؤخراً، نتج في جانب منه، عن تطرف بعض المثقفين العرب في الدفاع عن النظام، تطرفهم في اغماض العين عن مآسي الوضع العراقي في ظل صدام حسين. سؤال المفكر اللبناني معن بشور عن رأيه في المقابر الجماعية المكتشفة في العراق، بعد سقوط نظام صدام حسين فاجاب ان ذلك امر طبيعي فجميعهم كانوا خونة للحكومة ويستحقون القتل. وهذه المقولة نشاهد، اوردها خالد القشطيني الصحفي العراقي في جريدة الشرق الاوسط.

ومن يسمع جرأة الكاتب والصحفي عبد الباري عطوان رئيس تحرير جريدة القدس العربي، في كيل الشتائم للمعارضين العراقيين يتهمهم بصفة الارتزاق، والشوفينية، والتكالب على جثة البطل، والتحرر المستبد، القائل المذكر، المشروع القومي الذي يستاهل لصنعه مليون جمجمة. هكذا بدا المثقفون العراقيون يأملون في قرب سقوط النظام، وذلك قبل اشهر من الحرب، وراح عدد كبير من المثقفين والفنانين العرب يدخلون العراق بحجة اقامة دروع بشرية، تبين لهم لاحقاً انها كانت دروعاً للنظام، اذ اشرف على تلك الدروع اجهزة المخابرات العراقية وفدائيو صدام حسين واجهزة الحزب.

عادل محمود، ميشيل كيلو، خالد خليفة، هادي الصباغ، رغدة، حكم البابا، وغيرهم من اسماء تخجل، ولم يجرؤ احد من المدعين الان يقول انه ذهب للدفاع عن الشعب العراقي، لكن حقيقة الامر، او على الاقل كانت تلك مشاعر اغلب العراقيين، انهم ماضون للدفاع عن النظام، عن جمهورية العجز البشري في الحكم، وهذا ما اجج التطرف لدى المثقف العراقي. الشعب كله يحلم بسقوط النظام، ومساعدة الشعب هي بالامتناع عن ابداء اي تضامن مع النظام، قسم من المدعين البشريين راح يخون المثقفين العراقيين علانية، سواء شفهيا او في الجرائد والمجلات. صور المثقف العراقي المعارض عميلاً للسي اي اي، ومرتبطاً بالسياسات الانكلو امريكية وعميلاً ضد بلده وشعبه. وحين يفتقد العقل منطقه، يصعب على الحوار الوصول الى نتيجة، فكيف تقنع شخصاً برداءة صدام حسين ونظامه وحزبه، وهو لم يقتنع بذلك بعد كل تلك الدلائل والمآسي التي جلبها الى المنطقة، لا الى الشعب العراقي فقط؟

وضع المثقف العربي الرسمي او المتطرف قومياً، العربة قبل الحصان. تناسى كل قيمه التحررية وحقوق الانسان وغيرها كانت الحجة ان الوطن يتعرض الى غزو، وينبغي الدفاع عنه حتى لو تطلب الامر الوقوف مع نظام بائس مثل نظام صدام حسين. وتلك حجة عرفها العراقيون منذ الحرب الايرانية العراقية. لم يأخذ العراقيون بحجة مثل تلك، اهل مكة ادرى بشعابها.

سعدي يوسف

جمال الغيطاني

تعالوا انظروا الدم في الشوارع

حمزة الحسن

كانت السلطات المكسيكية قد اعلنت الطوارئ في الخمسينات بحثاً عن الروائي الكولومبي غابريل ماركيز بناءً على طلب سلطات بلده كولومبيا كجزء من حملة ارهاب ضد كتاب اليسار في القارة الامريكية الجنوبية، وحين ضاقت بغابريل الارض على وسعها، حيث كانت صورة موجودة في نقاط التفتيش كأي مجرم هارب، دخل سراً الى السفارة التشيلية في المكسيك. في داخل السفارة جرت فصول اغرب قصة تهريب لروائي في القرن العشرين لما انطوت عليه من معان وقيم وجرأة وشجاعة واخلاق تضامن صارت مثلاً نادراً في التقاليد الادبية والاخلاقية والسياسية تستحق فعلاً ان يطلع عليها جيل عراقي فر من الوطن في السنوات الاخيرة وشرع يتعرف لاول مرة على تقاليد عالم الكتب في مناخ من الحرية والتفتح.

والخوف، كل الخوف، هو في سقوط هذا الجيل تحت تأثير تيار سيليسيوي لم يرث من كل علوم وثقافات الكون غير فهم بوليسي للسياسة.

كان اقتراح السفير مجنونا ولا يمكن ان يقدم عليه سفير في العالم، بل ربما كانت المرة الوحيدة التي غامر بها سفير دولة ووضع موقعه على حد السيف، والاقتراح هو ان يسافر غابريل ماركيز بجواز سفر السفير الى باريس!

وكان غابريل في المطار يعامل من قبل السلطات ويحتفى به حسب التقاليد الدبلوماسية وما من احد يشك ان هذا السفير المزور هو غابريل ماركيز الهارب الذي تبحث عنه الشرطة المكسيكية في كل مكان. وفي مطار باريس استقبل كما يجب من اصدقاء وكتاب وقضى تلك الليلة يروي حكاية الهروب التي انطوت على معان اخلاقية سامية.

لكن من هو السفير التشيلي المجنون المغامر الذي منح جواز سفره الى الروائي المطارد؟ انه الشاعر التشيلي العظيم بابلو نيرودا! واسمه الحقيقي هو (ريكاردو نفتالي) لكنه استعمل اسم بابلو كاسم مستعار اعجابا بالشاعر التشيكوسلوفيكي جان نيرودا وكتب كل قصائده بهذا الاسم الجديد ومنح جائزة نوبل به.

وليس غريبا هذا الامر على شاعر وفنان كبير مثل بابلو كان يعيش الحياة والكتابة في تطابق وعلى مستوى واحد دون ان يكون الانسان شيئا والكاتب شيئا آخر مختلفا او نقيضا.

على جدار غرفة الكتابة، وضعت بطاقة بريدية جاءتني قبل سنوات من كوبا ارسلها المرحوم الصديق جورج فرنسيس وقد ذكرتها في روايتي "سنوات الحريق" كما هي مع ذكر اسم جورج كما هو، وهذه الصورة هي مجموعة جياد تركض في سهل اخضر مفتوح في نشوة بدائية تصل حد الرقص والفرح الغريزي الانتشاء الطبيعي في تلك البراري الطليقة ككشف اخضر. وبطاقة الخيول هذه تبدو واحدة من قصائد بابلو نيرودا الذي احتفلت قصائده على الدوام بخيول شيلي وحجارتها وسهولها وجبالها وعشاقها وثوارها وطيورها. فهذا الشاعر هو شاعر الحياة حقا، ويكتب كما الاشجار تورق، والغنم في شعره كالنسيم في الوردة، او كصوت مجرى الماء فوق صخور جبال شيلي التي احبها بشغف وغبطة وفرح طفولي بريء.

وبابلو نيرودا شاعر احب قضايا شعبه حتى اللحظة الاخيرة حيث ظل واقفا كسنديانة صلبة في ساعات الانقلاب في (11) ايلول (73) وقتل او مات موتا غامضا مع صديقه الليندي الرئيس الشرعي بعد انقلاب عسكري فاشي دبرته المخابرات الامريكية.

لكن التزام نيرودا كان من نوع آخر مختلف، ليس هو عشق البلدوزر، او الكتابة عن فوائد البصل في الكولخوز، او جماليات ماكنة الخياطة، بل التزام القلب البشري، للعاطفة الاصلية في الانسان، للحب، للطبيعة، للجمال العفوي غير المدرك لنفسه، جمال البراري والغزلان والبراءة والضمير والصخور والنور وحشرات الليل الخبيئة. انه الاحتفال بالحياة. هذه هي صفة صاحبه وحامل جوائزه غابريل ماركيز.

حين سئل غابريل عن التزام الكاتب اجاب، ان يكتب جيداً!!

لكن الامور لم تكن كذلك فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي، ومن نسخ التجربة السوفيتية في السياسة وفي الادب وفي الحياة، وخاصة النسخة العربية الاكثر رداءة من مثيلاتها في كل انحاء العالم بما في ذلك نسخ العالم الثالث.

فالطبيعة العربية في تقليد التجربة السوفيتية في كل شيء تتسم، كما في أي شيء آخر، بالسطحية والغالاة والتطرف والقبلية والتدين المستتر الرثي، والطائفية المقلقة بصبغة اليسار او هوية حزبية كاذبة سرعان ما تكشف وجهها الحقيقي في صراعات لاحقة.

وتجربة الروائي الروسي بوريس باسترناك الذي حاز على جائزة نوبل عن روايته "الدكتور زيفاكو" خير شاهد على هذا الارهاب، حيث قامت المؤسسة الثقافية البوليسية العريقة في تقاليد القمع بحملة ضارية تعرضت لحياة باسترناك ولم تترك به شيئا لأن الروائي نشر روايته في دار نشر في ميلانو في ايطاليا واثار نشرها ضجة في الاوساط العالمية واعتبر خائنا للوطن!

يعلق الدكتور عيسى الناعوري على هذه الحادثة في كتابه "دراسات في الآداب الاجنبية" قائلاً ان باسترناك طرد من اتحاد الكتاب وكان المرء لا يكون كاتبا او اديبا الا (اذا كان ببغاء في قفص!) وان حملة تشهير وتجن شنت على الكاتب من قبل الحزب حتى انه رفض استلام جائزة نوبل لكي يثبت لهم انه اكثر وطنية منهم، واعتزل الحياة العامة في عزلة حتى مات وحيداً وكان حفل التشييع مقتصراً على حفنة اصدقاء وريفيين احبهم الروائي ودفن تحت المطر على موسيقى جنائزية حزينة لباخ وعلى وقع ايقاع قصيدة له وضعت على الشاهدة تقول:

الحياة ليست نزهة في الحقل!

وبعد باسترناك عاش الروائي الكبير اليا اهرنبورغ صاحب رواية "ذوبان الثلوج" التي فضح وعرى فيها مرحلة كاملة من الارهاب السياسي والعام، محنة قاسية من الارهاب حتى اقر المؤتمر العشرون للحزب بما جاء في "ذوبان الثلوج" في انتصار جريء لروائي في تلك الحقبة.

لكن فوز الشاعر بابلو نيرودا بالجائزة كان له صدى مختلفا لان تقاليد الخوف والرداءة لم تسيطر على الحياة الثقافية في شيلي حيث كان شعراء وكتاب وادباء امريكا اللاتينية عموما يبدون استقلالية شخصية قوية وثقة بالنفس عزة واحتراما يستحق الاعجاب للتقاليد الوطنية لذلك حصلوا على شهرة عالية دون الغرق في وحول التقليد الاعمى ومن بينهم طبعا غابريل والروائي الغواتيمالي الحائز على نوبل تخيل اوستاريس صاحب رواية "السيد الرئيس" وهي ادانة فاضحة للدكتاتورية وجورج امادو البرازيلي والروائي البيروفي ماريا فارغاس لوسا مؤلف رواية "حفلة التيس" وغيرهم الكثير.

اشترك بابلو في الحرب الاهلية الاسبانية ضد نظام فرانكو في منتصف الثلاثينيات وهناك تعرف على كبار كتاب العالم ومنهم الروائي الفرنسي اندريه مالرو الذي كان طيارا في قوات الثورة، وتعرف على من سيكون صديقه وجرحه الكبير الشاعر الاسباني لوركا الذي قتل غدرا فيما بعد.

قال لوركا عن بابلو:

انه شاعر اقرب الى الموت منه الى الفلسفة، والى الالم منه الى الذكاء، والى الدم منه الى الحبر. انه شاعر مليء بالاصوات الساحرة التي لا يستطيع هو نفسه -لحسن الحظ- ان يفسرها، وهو رجل حق، يعرف ان طائر السنونو اكثر بقاء من التمثال الصلب/ ان شعر نيرودا يرتفع بنغم لا مثل له في امريكا، مليء بالحب، وكله عذوبة وصدق/ ان نيرودا لا يعرف الحقد والسخرية، وحين يريد ان يعاقب ويرفع السيف يجد نفسه امام حمامة جريحة بين اصابعه).

وشاءت الاقدار ان يقتل لوركا على يد وحوش ضارية بدون سيف او حتى ان يعاقب احدا. طلب منه قاتله في الوادي ان يركض ثم اطلق عليه النار من خلف، فخط تلك الليلة القمر غرناطة في بركة دم.

اما بابلو نيرودا فلم يطلب منه الفاشيست ان يركض لانه كان محمولا على نقالة وهو يصرخ في ليلة الانقلاب حين رأى الدم التشيلي في الشوارع:

تعالوا انظروا الدم في الشوارع!
تعالوا انظروا الدم في...!
تعالوا انظروا...